﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام: 104]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّخييرُ بين الحقِّ والباطلِ بعد بيان الحجَّةِ وتقرير المحجةِ

لَمَّا بيَّن تعالى منَ الآياتِ البيِّناتِ، والأدلّةِ الواضحاتِ، الدَّالّةِ على الحقِّ في جميعِ المطالبِ والمقاصدِ؛ نبَّه العبادَ عليها، وأخبرَ أنَّ هدايتَهم وضدَّها لأنفسِهم[1]، وأنَّ على الإنسانِ أن يختارَ طريقَه، فلم يبقَ لصاحبِ بصيرةٍ انطماسٌ، كما أنَّه لم يبقَ لصاحبِ غوايةٍ عذرٌ، فموقعُ الآيةِ مِن سابقاتِها هو موقعُ الاختيارِ بعد التَّقريرِ والبيانِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَصَآئِرُ﴾: جذر الكلمةِ هو (بصر): والبصرُ يُجمعُ على أبصارٍ، والبصيرةُ على بصائرَ، وأبصَرْتُ الشَّيءَ، وتَبَصَّرْتُ به، واستَبصرَ في أمرِه ودِينه، إذا كانَ ذا بصيرةٍ، والبصيرةُ اسمٌ لِما اعتُقِدَ في القلب منَ الدِّين وحَقيق الأمر[2]، والبصائرُ هنا هي: حججٌ بيِّنةٌ واضحةٌ ظاهرةٌ[3].

2) ﴿عَمِىَ﴾: العَمَى: ذَهابُ البَصرِ، ورَجُلٌ أعمَى وامرأة عَمياءُ، وعَمِيَت عَيناهُ. والعَمايَةُ: الغَوايةُ، وهي اللَّجاجة، والعَمايَةُ والعَماء: السَّحابُ الكثيفُ المُطبِقُ[4]، ويُستعارُ العَمى للقَلب كِنايةً عنِ الضَّلالة، والعِلاقَةُ عدمُ الاهتداء، فهو عمٍ وأعمَى القلب، وعَمِيَ الخبرُ: خفيَ[5]، وهذا هو المعنى المُرادُ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾.

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 268.
(2) الفراهيديّ، العين، والرّاغب، المفردات: (بصر).
(3) معمّر بن المثنى، مجاز القرآن، ص: 203.
(4) الفراهيديّ، العين: (عمي).
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (عمي).

3) ﴿بِحَفِيظٍ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (حفظ): الحِفظ: نقيضُ النِّسيان، وهو التَّعاهدُ وقلَّة الغَفلة، والحَفيظُ: المُوَكَّلُ بالشَّيءِ يحْفَظُهُ[1]. كالحافظ، يُقال: فلانٌ حفيظٌ عليكم، أي: حافظٌ. والحفيظ: المحافِظُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ﴾. والحفيظُ من أسماءِ اللّهِ الحسنى[2].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الحـقُّ ظـاهـرٌ زاهـرٌ، لا يُجبرُ عليه أحـدٌ ولا يمنع عنه مانع

تقرِّرُ الآيةُ أنَّ الآياتِ الَّتي جاءَتِ النَّاسَ هي آياتٌ تبيِّنُ الحقَّ، وتجعلُه للقلبِ بمنزلةِ الشَّمسِ للأبصارِ؛ لأنَّها صادرةٌ منَ الرَّبِّ الَّذي ربَّى خلقَه، بصنوفِ نِعَمِه الظَّاهرةِ والباطنةِ الَّتي من أفضلِها وأجلِّها تبيينُ الآياتِ، وتوضيحُ المُشكِلات.

فَمَنْ أَبصَرَ بها مواقعَ العِبرةِ، وعملَ بمقتضاها فَلِنَفسِهِ، وَمَن عَمِيَ بأن بُصِّرَ بها، فلم يتبصَّر، وزُجِر، فلم ينزجر، فإنَّما عمَاه مضرَّتُه عليه، وليس على الرَّسولِ إلَّا البلاغُ المبينُ، فهو ليس حفيظًا على أعمالِهم وأقوالِهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ موقعِ الآيةِ في السِّياقِ السَّابقِ:

الآيةُ انتقالٌ من مُحاجَّةِ المُشركين، وإثباتِ الوحدانيَّةِ للّهِ بالرُّبوبيَّة من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام: 103]؛ وهذا الكلامُ المُستأنفُ كالتَّوقيفِ والشَّرحِ والفذلكةِ للكلامِ السَّابقِ والتَّفصيلِ والبيانِ بعدَ الإجمالِ؛ ليُعرفَ الغرضُ الَّذي سِيقت من أجلِه الأدلَّةُ على وحدانيَّةِ اللّهِ وقدرتِه[4].

الآيـة فـذلكـةٌ لما سبـق، غايتُـها معرفةُ الغرضِ الَّـذي سِيقت له الأدلَّةُ

(1) الفراهيديّ، العين: (حفظ).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 268.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/418.

غرضُ الحذفِ في قولِه تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾:

الـجـمـعُ بـينَ غرضِ الاتِّصالِ، والتَّنبيهِ على علاقةِ الرَّسولِ بالمدعوِّين

قولُه تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ مقولٌ لفعلِ أمرٍ محذوفٍ، فيقدَّر: قل - يا محمَّد ﷺ - قد جاءَكم بصَائِرُ، وقرينة ذلك قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[1].

فالآيةُ جاءَت استئنافًا للكلامِ بتوجيهِ خطابٍ للنَّبيِّ ﷺ وفيه بيانُ علاقةِ الرَّسولِ بالمدعوِّين، وأنَّ عليه إقامةَ الحُجَّةِ عليهم، وغرضُ الحذفِ بقاءُ الكلامِ متَّصلًا بالسَّابقِ، مع التَّنبيهِ اللَّطيفِ على أنَّ هذا الكلامَ يجبُ أن يصدُرَ عن رسولِ الله ﷺ كما جاء في فاصلتِها.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾:

إسـنـادُ المجيءِ إلى البـصـائـرِ تفخيمٌ لشأنِها وتعظيمٌ لحالِها

أُسنِدَ المجيءُ في قولِه تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ إلى البصائرِ، أي: ما تُبصرون به الهدى منَ الضَّلال[2]، من بابِ الاستعارةِ، شُبِّه بمجيءِ شيءٍ كانَ غائبًا، تنويهًا بشأنِ ما حَصَلَ عندهم بأنَّه كالشَّيءِ الغائبِ المتوقَّع مجيئُه[3]، فهي تفخيمٌ لشأنِ البصائر[4]، وعليه فالاستعارةُ مكنيَّةٌ تخييليَّةٌ؛ إذ صوَّر حضورَ البصائرِ مثل إنسانٍ يُقدِّمُ الأدلَّةَ للمُستبصرين.

نكتةُ تذكيرِ الفعلِ في قولِه تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم﴾:

تنزيلُ البصيرةِ منزلةَ البرهانِ

فعلُ المجيءِ في قولِه تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ جاءَ مذكَّرًا، والفاعلُ جمعُ مؤنَّثٌ، وذلك من حيثُ الجوازُ اللُّغويُّ فجائزٌ؛ لأنَّ الفعلَ المسندَ إلى جمعِ تكسيرٍ مُطلقًا، أو جمع مؤنَّثٍ، يجوز اقترانه بتاء التَّأنيث، وخلوُّه عنها[5]، لكنَّه هنا آثرَ التَّذكيرَ على التَّأنيث؛ لدلالةِ القوَّة في المجيءِ، ولتنزيلِ البصيرةِ منزلةَ البرهانِ، كما قال

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 1/129.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/469.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/418.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/607.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/418.

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [النّساء: 174]، فتكون البصائرُ شاملةً لمعنى البيِّناتِ والبرهانِ.

دلالةُ دخولِ ﴿قَدۡ﴾، وتعديةِ فعلِ (جَاءَ) في الآيةِ:

تحقُّقُ مجيءِ البصائرِ في سياقِ إقامةِ الحجَّةِ

جاءَ الفعلُ ﴿جَآءَكُم﴾ متعدِّيًا لا لازمًا، ومفعولُه ضميرُ المخاطَبين، فلم يقُل: (قد جاءَ بصائرُ من ربِّكم)؛ اكتفاءً في إضافةِ (ربٍّ) إلى ضميرِ المخاطَبين، وذلك لتأكيدِ المجيءِ وتثبيتِ البرهانِ، أي: قد تحقَّقَ المجيءُ ولا حجَّةَ لكم بعد الآن، ويُرشِّحُ هذا المعنى دخولُ ﴿قَدۡ﴾، فإنَّها تُفيدُ التَّأكيدَ، وهو المناسبُ لسياقِ الآيةِ في إقامةِ الحُجَّةِ.

غرضُ الجِناسِ بينَ البصائرِ والأبصَارِ:

التَّنبيهُ على أنَّ وسيلةَ معرفةِ البصائرِ هي الأبصارُ

البصائرُ جمعُ بصيرةٍ، وهي للنَّفس كالبصرِ للبدن، سُمِّيَت بها الدِّلالة؛ لأنَّها تجلي لها الحقَّ وتبصِّرُها به[1]، والبصيرةُ: العقل الَّذي تظهرُ به المعاني والحقائقُ، كما أنَّ البصرَ إدراكُ العينِ الَّذي تتجلَّى به الأجسامُ، وبينَ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ و﴿بَصَآئِرُ﴾ جناسٌ ناقصٌ لتبايُنِ ترتيبِ حروفهما، وفائدتُه: التَّنبيهُ على العلاقةِ بين البصائرِ والأبصارِ، فالآياتُ الَّتي جاءَتهم هي منافذُ النُّورِ الإلهيِّ لهدايتهم، فمَنِ اتَّخذها وسائلَ إبصارٍ؛ فقد أبصَرَ لنفسِه، ومَن أنكرَها؛ فقد عَمِيَ عنِ الهدايةِ، وأنَّه تعالى جعلَ الإبصارَ وسيلةً من وسائلِ معرفةِ البصائرِ.

الاستعارةُ المكنيَّةُ في قولِه تعالى: ﴿بَصَآئِرُ﴾:

خُصَّ نورُ القلبِ بالبصيرةِ تمييزًا لـه عـن بصـرِ العينِ

البصيرةُ هي ما ينقِّب عن تحصيلِ العقلِ للأشياء المنظورِ فيها بالاعتبارِ، فكأنَّه قال: قد جاءَكم في القرآنِ والآياتِ طرائقُ إبصارِ الحقِّ والمعينة عليه[2]، فالبصيرةُ نورُ القلبِ الَّذي يستبصرُ به، كما أنَّ البصرَ نورُ العين الَّذي به تُبصِر، والأصلُ في البصرِ للحاسَّة، فشُبِّه نورُ القلبِ بنور العينِ الَّذي هو البصرُ، وخَصُّوا نورَ القلبِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/176.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/330.

باسمِ البصيرةِ تمييزًا لها عنِ البصر، وتشبيهًا لها به، ثمَّ أصبح هذا الاستعمالُ المجازيُّ يجري مَجرَى الحقيقةِ العرفيَّة، وهو في الأصلِ استعارةٌ مكنيَّةٌ، بذكرِ المُشبَّهِ وحذفِ المُشبَّه به.

البصائرُ أمكنُ في المدحِ منَ المبُصِّراتِ

والبصائرُ جمعُ بصيرةٍ، والمُرادُ بها اسمُ الفاعلِ، فهي براهينُ تُبصِّرُ النَّاسَ بالحقِّ، وأُوثِرَ ذكرُ البصائرِ دون المبصِّراتِ؛ لأنَّها أبلغُ في المدحِ، فهي بصائرُ في ذاتِها، وأن تكونَ بصائرَ في ذاتِها أمكنُ في المدح من وصفِها بأنَّها مُبصِّراتٌ لغيرِها؛ للمبالغةِ في تسميةِ البرهانِ والحجَّة بالبصيرة.

نكتةُ جمعِ البصائرِ في قولِه تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾:

البصائرُ جمعًا هي البيِّناتُ التي تأتي الآخرين، والبصيرةُ إفرادًا هي العلمُ اليقينيُّ

وردَتِ البصيرةُ في القرآنِ جمعًا - كما في هذه الآيةِ - وإفرادًا كما في قولِه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: 108]، وقولِه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [القيامة: 14]، وباختلافِ الجمع والإفرادِ يختلفُ المعنى، فمعناها في الإفرادِ العلمُ اليقينيُّ الَّذي يتمكَّنُ منه الإنسانُ، وأمَّا في الجمع فيُرادُ منها البيِّناتُ والبراهينُ الَّتي تأتي الآخرين؛ لإثباتِ الحقِّ - كما في هذه الآيةِ - وقولِه تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: 203]، وقولِه: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: 102]، وقولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: 43]، وقولِه: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية: 20]، وهذا من بديعِ الاستعمالِ القرآنيِّ، أن يجعلَ للإفرادِ دَلالةً، وللجَمْعِ دَلالةً مُغايِرَةً.

معنى الابتداءِ المجازيِّ في قولِه: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾:

(مِن) في قولِه تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ ابتدائيَّةٌ تتعلَّقُ بـ (جاء)[1]،

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/234.

البصائرُ الآتيةُ من الله تعالى كفيلةٌ بتبصيرِ الأعمى، وإسماعِ الأصمِّ، وإنطاقِ الأبكم

أي: جاءتِ البصائِرُ ابتداءً من ربِّكم، أو هي صفةٌ لـ ﴿بَصَآئِرُ﴾، أي: بصائرُ آتيةٌ من ربِّكم، وقد جعل خطابُ الله بها بمنزلة ابتداءِ السَّيرِ من جانبه تعالى وهو منزَّهٌ عنِ المكان والزَّمان، فالابتداءُ مجازٌ لغويٌّ، أو هو مجازٌ بالحذف بتقدير: من إرادةِ ربِّكم، والمقصودُ التَّنويهُ بهذه التَّعاليم والشَّرائع الَّتي بها البَصائرُ، والحثُّ على العمل بها؛ لأنَّها مُسداةٌ إليهم منَ الله[1] ﷻ.

نُكتةُ اختيارِ لفظِ (الرَّبّ) وإضافته إلى ضميرِ المُخاطَبين:

الـرَّبُّ الَّـذي خلقَ النَّاس لم يـترُكْـهُـم بـدونِ تربيةٍ ورعايةٍ

في قولِه تعالى: ﴿رَبِّكُمْ﴾: لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ اختيارِ لفظِ الرَّبِّ، وإضافته إلى ضميرِ المخاطَبين، والجواب: لِمَا في ذلك من تربيةِ المهابةِ، وتنشيطِ الأنفسِ، لتقويةِ داعي العمل بهذه البصائر[2]، وإظهارِ كمالِ اللُّطفِ بهم، أي: قد جاءَكم من جهةِ مالِكِكم ومبلِّغكم إلى كمالِكم اللَّائقِ بكم منَ الوحي النَّاطقِ بالحقِّ والصَّواب ما هو كالبصائر للقلوب[3]، فهو امتنانٌ عليهم، وبيانٌ لرعايته لهم، فإنَّ من معاني الرُّبوبيّةِ التَّربيةَ والرِّعايةَ، فمجيءُ البصائرِ منَ الله تعالى للبشرِ يدخلُ في الرِّعايةِ الرَّبَّانيَّةِ، والتَّربيةِ الإلهيَّةِ للإنسانيَّة، فهي إخبارٌ بالمجيءِ منَ الله تعالى وتعليمٌ أنَّ ذلك مِن مقتضى الرُّبوبيَّة، وأنَّ الَّذي خلَقَهم لم يتركْهُم سدًى.

معنى الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾:

البصائرُ هداياتُ الله لعبادِه، ومكاسبُ النُّفوسِ الصفيَّة

بعد أن ذكرَ البصائرَ فرَّعَ بقوله: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ وفي التَّفريعِ دعوةٌ لإعمالِ العقلِ والنَّفسِ للإبصارِ في البحثِ عنِ الحقِّ، فمَنِ انتفعَ بما جاءهُ من ربِّه منَ الخير والآيات والتَّشريعات، فأخذها جملةً واحدةً، فأبصر طريقَ الإيمانِ، فيكون ذلك عائدًا على نفسِه، لتحقيقِ المصلحةِ لها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/418 - 419.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/418 - 419.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/234.

الاستعارةُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾:

استُعير الإبصارُ في قولِه: ﴿أَبْصَرَ﴾ للعلم بالحقِّ والعمل به؛ لأنَّ المُهتديَ بهذا الهدي الواردِ منَ اللّه بمنزلة الَّذي نُوِّرَ له الطَّريقُ بالضِّياء، فأبصرَه، وسارَ فيه[1]، ونوعُ الاستعارةِ تصريحيَّةٌ؛ فقد حذَفَ المُشبَّهَ، وذكرَ المُشبَّهَ بِه، فمَن عَلِمَ الحقَّ، وعَمِلَ مُهتديًا بِه؛ فهو مُبصِرٌ عاملٌ لمصلحةِ نفسِه، ودليلُ الاستعارةِ أنَّ فاقدَ البَصَرِ إنِ اهتدى؛ فقد أبصر لنفسِهِ، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقةِ؛ لأنَّ فيها تجسيدًا للمعاني المعنويَّةِ.

الاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقةِ لأنَّها تجسيدٌ للمعاني وتشخيصٌ للحقائقِ

معنى الفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾:

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ تربطُ بين الشَّرطِ وجوابِه، أي: إن حصلَ إبصارٌ من أحدٍ، فنفعُه يعودُ عليه، فهي رابطةٌ بين مضمونِ فعلِ الإبصار وما يحصِّلُه المبصِرُ من المصالح العظيمةِ، والهدايات الجليلةِ، والمنافع العميمة، بعد إبصارِه بحقيقةِ المطلوبِ، وتحقيقِه لعظيمِ المقصودِ.

الهدايات الجليلةُ والمنافعُ العظيمةُ ثمرةُ الإبصارِ وحقيقةُ الاستقرار

نُكتةُ حذفِ المسندِ إليه في قولِه تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ حذفٌ للمسندِ إليه، تقديرُه: (فإبصارُه كائنٌ لنفسِه)، دلَّ عليه: ﴿أَبْصَرَ﴾، ونكتةُ الحذفِ مراعاةُ حالِ المخاطَبين في العِنايةِ بالنَّفس، فحذفُ (إبصاره) يُوجِّه المخاطَبين لما يحرِصونَ عليه منَ النَّفعِ الذَّاتيِّ، ففيه رعايةٌ لقيمةٍ تأثيريَّةٍ نفسيَّةٍ بليغةٍ.

النَّظمُ يدعو المخاطَبين للحرصِ على أنفسِهم

الاستعارةُ التَّبعيَّةُ في حرفِ اللَّامِ في قولِه تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾:

استُعملتِ اللَّامُ في قولِه: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ استعارةً للنَّفعِ؛ لدلالتها على الملك، وإنَّما يملكُ الشَّيءَ النَّافعَ المدَّخرَ للنَّوائب[2]،

المُبصِرُ لنفسِه متمكِّنٌ في جلبِ الخيراتِ لها ودفعِ الموبِقات عنها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/419.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/419.

فاستُعيرتِ اللَّامُ الدَّالَّةُ على الملك استعارةً تبعيَّةً في الحرفِ، بتشبيه مُتعلَّقِ اللَّام، وهو الملكُ بالنَّفعِ، وذلك لبيانِ تمكُّنِ المبصِرِ منَ الانتفاعِ بالقرآنِ الكريمِ.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ النَّفسِ في: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾:

العاقلُ يعلمُ أنَّ النَّفعَ والضُّرَّ راجعٌ إلى نفسِه لا لِسِواها

هذه الآيةُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ تُعالج مشكلةً في النَّفس عند المُعاندين المُعارضين في كلِّ زمانٍ، فإنَّهم يحسبون أنَّهم يغيظون المؤمنين؛ إذا عَمُوا عنِ البصائرِ والآياتِ الَّتي جاءَتهم من عندِ اللهِ، فيُجاهِرون بالمعاصي، ويُصرُّون عليها، وقد نبَّهتِ الآياتُ باستعمالِ كلمةِ النَّفس إلى هذا الملحظ، وأنَّ النَّفعَ لها لا لغيرِها، كما أنَّ الضُّرَّ عليها لا على غيرِها.

التَّمثيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَبْصَرَ﴾:

الإبصارُ هو المُنفذُ إلى الوجودِ والوقائعِ واستدراكِ الحقائقِ

في قولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ يجوزُ أن يكونَ ﴿أَبْصَرَ﴾ تمثيلًا مُوجزًا ضُمِّنَ فيه تشبيهُ هيئةِ المُرشِدِ إلى الحقِّ؛ إذا عمل بها، بهيئةِ المُبصِرِ؛ إذا انتفعَ ببصَرِهِ[1]، فأوجز في تقريب الصُّورة إلى الأذهان بهذا التَّمثيل، أي: فمثالُ مَنِ استرشدَ في طلبِ الخيرِ، كمَن أبصَرَ في اكتسابِ ما ينفعُهُ، فكشفَ التَّمثيلُ عن دور النَّفسِ في قبولِ الإرشادِ، فجعل لها دورًا محوريًّا، واقتضى أن يجعلَ مردودَ الخير إليها، والعكس إن أعرضَت عن قبولِهِ، وعميَت عن تلك البصائرِ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ في: ﴿عَمِىَ﴾:

الضَّالُّ عنِ الحقِّ كالأعمى الَّذي يسيرُ بدونِ مُرشِدٍ

في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾: استُعير العَمَى في قوله: ﴿عَمِىَ﴾ للمُكابرةِ والاستمرارِ على الضَّلال بعد حصول ما شأنه أن يُقلِعَهُ عنه؛ لأنَّ المُكابرَ بعد ذلك كالأعمى، لا ينتفعُ بإنارةِ طريقٍ ولا بهدي هادٍ[2]، فشُبِّهَ مَن كابَرَ، واستمرَّ في ضلالِه بمَن عَمِيَ عنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/419.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/419.

الرُّؤية، فالاستعارةُ تصريحيَّةٌ؛ إذ حُذِفَ المشبَّهُ، وذُكِرَ المُشبَّهُ به، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقةِ، إذ فيها ذمٌّ لمَن أصرَّ على الباطلِ، وتركَ الحقَّ، بتشبيهه بالأعمى الَّذي يسيرُ في الأرضِ دون مُرشدٍ، ولمَا في لفظِ العمى منَ النُّفورِ عنِ الأسوياءِ.

تمثيلٌ ثانٍ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾:

غـرضُ تقبيحِ صـورةِ الـضَّـالِّ النَّفورُ منه

ويجوز اعتبارُ التَّمثيليَّةِ في قوله: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾، أيضًا كاعتبارِها في ضدِّه السَّابق[1]، فيجوزُ أن يكون ﴿عَمِيَ﴾ تمثيلًا ضُمِّنَ فيه تشبيهُ هيئةِ الضَّالِّ الدَّالِّ على الهوى؛ بهيئة الأعمى الَّذي لا يُبصرُ، فيقعُ في مهاوي الرَّدى.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ (على):

تصـويـرُ مشهدِ وقوعِ الضُّرِّ على مَن يسعى لذلك

استُعملَ حرفُ (على) في قولِه: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾؛ لتصويرِ المشهدِ البليغِ، فكأنَّ ضرًّا يقعُ على صاحبِه[2]، إذِ الأعمى إذا أرادَ أن يتصرَّف معتمدًا على نفسِه دون التجاءٍ إلى المُبصرين، فإنَّه يُوقِعُ على نفسِه ضُرًّا بليغًا، فالشَّيءُ الضَّارُّ ثقيلٌ على صاحبِه يكلِّفُه تعبًا، وهو كالحِملِ الموضوعِ على ظهرِ صاحبِه[3]، يُكلِّفُه الطَّاقةَ ويُجهدُه، ويشقُّ عليه، كما قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الإسراء: 15].

بلاغةُ الكنايةِ:

الإبـصـارُ كنايةٌ عـن الـهـدى والعـمى كنايةٌ عن الضَّلال

في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾ أي: فالإبصارُ لنفسِه، بمعنى: نفعِه وثمرتِه، ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾، أي: ومَن لم يبصرِ الحقَّ بعد ما ظهرَ له بتلكَ البصائرِ ظهورًا بيِّنًا، وضلَّ عنه، وإنَّما عبَّر عنه بالعمى، تقبيحًا له وتنفيرًا عنه[4]، والإبصارُ والعمى، كنايتان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/419.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/607.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/418.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/170.

عنِ الهُدى والضَّلال، والمعنى: أنَّ ثمرةَ الهُدى والضَّلال إنَّما هي للمهتدي والضَّالِّ؛ لأنَّه تعالى غنيٌّ عن خلقهِ، وهي منَ الكناياتِ الحسنةِ لمَّا ذكر البصائرَ أعقبها تعالى بالإبصار والعمى[1].

جناسُ الاشتقاقِ بَينَ ﴿بَصَآئِرُ﴾ و﴿أَبۡصَرَ﴾:

آيـاتُ الـوحـيِ بصائرُ لأصحابِ البصيرةِ المهتدين

في الآيةِ محسِّنُ جناسِ الاشتقاقِ بَينَ ﴿بَصَآئِرُ﴾ وفعلِ ﴿أَبۡصَرَ﴾[2]، وفائدتُه: بيانُ أنَّ البصائرَ أوِ الأدلَّةَ الَّتي تراها العيونُ، وعَرَفَتهَا العقولُ، ممَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى في الخلق والتَّقدير، والأدلَّة من آيات القرآنِ الكريم، هي نوافذُ الإبصارِ لمعرفة الحقيقةِ المُغيَّبةِ عنِ النَّاس؛ إلَّا أن تكونَ من خلال هذه البصائرِ والآيات.

بلاغةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ:

إطـمـاعُ العبادِ بـالـهـدايـةِ مـن أولـويَّـات الـخـطـابِ القرآنيِّ في نظمِهِ وألفاظِهِ

في قولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾ قُدِّمت جملةُ ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ على جملةِ: ﴿وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾؛ لسببين اثنين: أحدهما دلاليٌّ، والآخر لفظيٌّ، أمَّا الدِّلاليُّ؛ فهو من باب إطماعِ العبادِ في طلبِ البصائرِ، ودفعِ المضارِّ، والتَّبشيرِ في الهدايةِ، فإنَّ البشارةَ في مثل هذه المقاماتِ مقدَّمةٌ على النِّذارةِ، وأمَّا الجانبُ اللَّفظيُّ؛ فإنَّ الإبصارَ أوفقُ بالبصائرِ منَ العمى، فقُدِّمَ لتتوافقَ الألفاظُ، وتتدانى المشتقَّاتُ من أصلٍ واحدٍ.

بلاغةُ المقابلةِ:

تـتـكـاثـرُ أعـراقُ الـنَّـاسِ لكنَّهم عـلـى فـريـقـين متناقضين بين الهداية والضَّلال

في قوله: ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾ قابلَ النَّظمُ بين قولِه: ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ وقولِه: ﴿وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾؛ وفائدةُ هذه المقابلة: الإيجازُ والشُّمولُ والحصرُ، في بيان الحالين المتقابلين من أصحابِ الهدى والضَّلالِ، فالنَّاس جميعًا ما بَين مُهتدٍ وضالٍّ، والهدى أوِ الضَّلالُ يعودُ للنَّفسِ أو عليها، وهذا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/607.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/420.

تصريحٌ بكونِ العبدِ مُستقلًّا بالفعل والتَّرك، وأنَّه لا مانع له البتَّةَ منَ الفعل والتَّركِ[1].

جَرَيانُ قولِه: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ مثلًا سائرًا:

قولُهُ: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾، هذه الدُّرَّةُ البليغةُ أصبحت مثلًا سائرًا، يُقال في كلِّ مَوضعٍ يحسب فيه المُعارضون أنَّهم يغيظون المؤمنين في إنكارِهم للبصائرِ والآياتِ، فيُقالُ لهم: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾، فتكون موعظةً لمَن كان في قلبه إيمانٌ.

النَّظمُ البليغُ الجامعُ يجري على اللِّسانِ بأفصح بيان

غرضُ فنِّ التَّتميمِ:

جملة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ تتميمٌ لقوله: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾، وغرضُه: صيانةُ احتمالِ أن يظُنَّ ظانٌّ أنَّ رسولَ الله ﷺ حفيظٌ عليهم، ورقيبٌ على أعمالِهم، فإنَّ ذلك ليس له، ففيه تكليفُ كلِّ نفسٍ بخاصَّةِ نفسِه، فكما أنَّه لن ينفعَ أحدًا أحدٌ، فكذلك لن يضرَّ أحدًا أحدٌ، وفيه إشعارٌ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، إذِ الرَّقابةُ والحفظُ للّه ربِّ العالمين.

إشعارُ العبادِ بالمسؤوليَّةِ، وبناءُ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ في النُّفوس

دقَّةُ استعمالِ الصِّفةِ المُشبَّهةِ في الجملةِ الاسميَّةِ:

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ، والإتيانُ بالجُملةِ الاسميَّةِ هُنا دَقيقٌ؛ لأنَّ الحَفيظَ وَصفٌ لا يُفيدُ غيرُهُ مُفادَهُ، فلا يَقومُ مَقامَهُ فِعلُ حَفِظَ، فالحفيظُ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ يُقَدَّرُ لها فِعلٌ مَنقولٌ إلى (فَعُلَ) - بِضَمِّ العَينِ - لَم يُنطَقْ بِهِ مِثلُ: الرَّحِيم[2]، وقد تنوَّعَت معاني الحفيظِ في الآيةِ، فقيل فيها: برقيبٍ أحصرُ أعمالَكم، أو بوكيلٍ آخذُكُم بالإيمانِ، أو بحافظِكُم من عذابِ اللّه، أو بربٍّ أُجازيكُم، أو بشَاهِدٍ[3].

وظيفةُ الرِّسالةِ النَّبويَّةِ مقصورةٌ على البلاغِ الدَّائمِ إلى يومِ الدِّين

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/95.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/421.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/607.

وجهُ الاختصاصِ بتقديم المسنَدِ إليه:

السِّياقُ يُخصِّصُ المعاني ويُحدِّدُ المقصودَ

في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ﴾ أفادَ تقديمُ المسندِ إليه المنفيِّ، وإتيانُ المسندِ صفةً مشبَّهة: الاختصاصَ، وهذا هو المشهورُ من مذهب الزَّمخشريِّ، وعمومِ البلاغيِّين، خلافًا لما صرَّح به الشَّيخ عبدُ القاهر الجرجانيُّ في اشتراطِ أن يكونَ المسندُ فعلًا مضارِعًا، قال الزَّمخشريُّ: "﴿بِحَفِيظٍ﴾ أحفظُ أعمالَكم وأجازيكم عليها، إنَّما أنا منذرٌ، واللهُ هو الحفيظُ عليكم"[1]، والصَّحيحُ أنَّ السِّياقَ في مثل هذه الآياتِ، هو المعينُ على تعيينِ الاختصاصِ، أمَّا النَّظمُ؛ ففيه سَعةٌ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ﴾:

طمعُ النَّاسِ برحمتِه ﷺ دليلُ الرِّفعةِ والمجدِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ﴾ على الصِّفةِ المُشبَّهةِ، لأمرين اثنين: **الأوَّل**: زيادةُ الاهتمامِ بنفي كونه حفيظًا على المخاطَبين، كأنَّه قال: وما أنا عليكُم أنتم على وجهِ الخُصوصِ بحفيظٍ، وهذا لبيانِ شدَّةِ النَّفي وتمكُّنِه، لا لبيانِ أنَّه حفيظٌ على غيرِهم، إذْ غَرَضُ التَّقديمِ العنايةُ بتثبيتِ المعنى في ذِهنِ المخاطَبِ بالدَّرجةِ الأولى، وهذا يدلُّ على طمعِ النَّاس كافرِهم ومؤمنِهم برحمتِه ﷺ، **والآخر**: التَّلاؤمُ في الفواصلِ، وهو تابعٌ للسَّابقِ لا أصلٌ مُستقلٌّ عنه، فإنَّ التَّلاؤمَ بينَ الفواصلِ مطلبٌ لفظيٌّ بديعٌ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحفيظُ والوكيلُ:

الحفيظُ أعمُّ من الوكيلِ لاختصاصِ الوكيلِ بالدِّفاعِ عن موكِّليه

(الحفيظُ) بمنزلةِ (الوكيل) إلَّا أنَّ (الحفيظَ) أعمُّ؛ لأنَّه يكون من جانبِه ومن جانب مواليهِ، وهذا قريبٌ من معنى قوله تعالى:

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/55.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦﴾ [الأنعام: 66][1]، فيدلُّ الحفيظُ على حفظهم منَ الوقوعِ في الأخطاءِ والآثام، أمَّا الوكيلُ؛ فهو المُدافعُ عن موكِّليه منافحًا عن حقوقِهم، ضامنًا لإيمانِهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/421.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»